



لا أجد أسف من مسلسل خلافة داعش المعروض علينا هذه الأيام، سوى أصداءه في أواسط النخبة المصرية.

(1)

لا أعرف إلى أى مدى انشغل الرأى العام العربى بحكاية الخلافة الإسلامية التى أعلنتها «داعش» عن بقية مسلسلات شهر رمضان، لكنى أستطيع أن أقول باطمئنان إن مسلسل الخلافة لم يضرب بقية مسلسلات رمضان فحسب، وإنما نافس مونديال البرازيل أيضاً.

ومن لديه أى شك فى ذلك فليفتح أى صحفة عربية، وسيجد أن أصداe الخلافة تزاحم أخبار المونديال، والفرق بين الاثنين أن الأولى فرقعة كبيرة حدثت فى بلاد الشام، أما الثانية فهى حقيقة على أرض البرازيل. وظلت الإثارة أهم القواسم المشتركة بينهما، وإن تميزت الفرقعة بأن الإثارة فيها مكتوبة بالدم ومحفوفة بالخوف.

مبلغ علمى أن الباحثين فى الفكر السياسى الإسلامى اتفقوا على أن الإسلام لم يحدد شكلًا ولا نظامًا للحكم. ولكنه فقط أرسى قاعدة «الشورى» لتكون أساساً للحكم، بما يعني أنه حدد «قيمة» يصوغها أهل كل زمان، حسب ما تقتضيه مصلحتهم. وقد ظلت الخلافة الراشدة نموذجاً فريداً في التاريخ. يُشعر المؤمنين بالاعتذار والفخر.

ولا يأس في أن تختلط مشاعر الاعتذار بالخلافة عند المؤمنين بالحنين إليها، من باب إنشاش الذاكرة وترتيب الجوانح ليس أكثر؛ إذ لا يستطيع أحد أن يمنع المسلمين من استعادة عصورهم الذهبية واستلهامها، لكن ذلك لا ينبغي له أن يمثل التزاماً بمرجعية الشكل، بقدر ما يعني الحث على الاسترشاد بمنظومة القيم الإيجابية التي سادت في تلك العصور.

(2)

في عام 1953 أطلق القاضي تقى الدين النبهانى في القدس دعوته إلى إقامة الخلافة الإسلامية، وجتمع شمل المسلمين تحت

لواهها، وأسس لأجل ذلك حزب التحرير الإسلامي الذي لا يزال يتبنى تلك الدعوة، وله أتباعه في فلسطين والأردن، وفي شرق آسيا وبعض دول المهجر التي يستشعر بعض المسلمين المقيمين فيها بأنهم بحاجة إلى مظلة تحميهم. ورغم أن «أمراء» حزب التحرير أعدوا عدتهم لذلك وقسموا العالم العربي إلى ولايات، إلا أن دعوتهم ظلت محصورة في نطاق الدعوة والتبيشير، ولم تذهب إلى أبعد من ذلك طوال الستين سنة الماضية، إلا أن تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش)، الذي تأسس في عام 2006، ما أن حق بعض الانتصارات العسكرية في العراق وسوريا في الآونة الأخيرة، مستعيناً بقيادات جيش صدام حسين، ومستثمراً غضب أهل السنة وانتفاضهم، حتى أعلن في 29 يونيو الماضي (أول أيام شهر رمضان) إقامة الخلافة وبيعة الخليفة، ودعا المسلمين في أرجاء الأرض للانضواء تحت لوائه، واستفاد التنظيم من تدهور الأوضاع في العراق وأضطرابها في سوريا فبسط سيطرته على معظم أنحائها الشرقية وتقدم بسرعة في المحافظات السنية بالعراق.

وفي انتشاره فإنه استولى على كميات كبيرة من السلاح الموجودة في مخازن البلدين، وعلى أموال من البنوك التي وقعت في أيديهم. كما وضع التنظيم يده على حقول نفط وأراض زراعية، وهي عوامل وموارد أقنعت قادته بإمكانية استمرار دولة الخلافة وتمددها.

ثمة لغط مثار حول دور الأطراف الخارجية في إطلاق داعش وانقضاضها المفاجئ، كما أن هناك جدلاً حول طبيعة وهوية التنظيم في كل من العراق وسوريا، وكونه يتسم بقدر من المرونة ويحرص على التعاون والتفاهم مع العشائر في العراق، فضلاً عن اعتماده على قيادات محلية عراقية.

أما في سوريا فهو أكثر عنفاً وأشد قسوة وغلظة، ومن بين قياداته «مجاهدون» قادمون من الخارج، أبرزهم مسلم من جورجيا تسمى باسم أبو عمر الشيشاني، ينتمي إلى كيان اسمه «جيش المغتربين والأنصار»، الذي يضم عدداً كبيراً من المقاتلين المسلمين الذين ينتمون إلى الجمهوريات السوفيتية السابقة.

على أهمية تلك الخلافية، إلا أن ما يهمني في السياق الذي نحن بصدده هو مسألة الخلافة المعلنة، التي أصبحت تختل حيزاً كبيراً من التغطية والمتابعات الإعلامية.

وقد أثار انتباхи أن تلك المتابعات أخذت المسألة على محمل الجد، وتعاملت مع الفرقعة وكأنها حقيقة مستقرة على الأرض، وليس مجرد سحابة عابرة في فضاء المنطقة ضمن تجليات الفوضى التي تعتمل بين جنباتها.

من المفارقات أن حزب التحرير، الذي اعتبر الخلافة ركيزة مشروعة وغاية مراده، أصدر بياناً في عمان اعتبر فيه إعلان الخلافة، الذي أصدرته «داعش»، «لغوا لا قيمة له.. لا يقدم ولا يؤخر».

كما أن اتحاد علماء المسلمين الذي يرأسه الدكتور يوسف القرضاوي، أصدر بياناً في 3/7 أعلن فيه «أن إعلان فصيل معين للخلافة باطل شرعاً، لا تترتب عليه أى آثار شرعية، بل تترتب عليه آثار خطيرة على أهل السنة في العراق والثورة في سوريا»، واعتبر الإعلان تعبيراً عن «الافتقار إلى فقه الواقع وأشباهه بالانقضاض على ثورة الشعب، التي يشارك فيها أهل السنة بكل قواهم».

الدكتور أحمد الريسوني، الفقيه المغاربي ونائب رئيس اتحاد علماء المسلمين، نشرت له صحفة «التجديد» (في 1/7) تصريحاً، قال فيه إن إعلان الخلافة الإسلامية ليس أكثر من وهم وسراب وأضغاث أحلام، سواء من ناحية الواقع العملي أو من الناحية الشرعية، وأضاف قائلاً إن البيعة المزعومة تمت من أشخاص مجاهيل لشخص مجهول في صحراء أو كهف من الكهوف، فلا تلزم ولا تعنى إلا أصحابها».

من الأمور الجديرة بالملاحظة أن كثيرين انشغلوا بفرقة إعلان الخلافة، الأمر الذي صرف انتباهم عن العوامل الكامنة وراءها أو البيئة التي أفرزتها.

ومن ثم فإن أبصارهم اتجهت صوب تنظيم «داعش» وممارساته في العراق وسوريا. ولم يدركوا أن التنظيم هو جزء من مشكلة، ولكنها ليس جوهر المشكلة. ذلك أنه في جذوره حركة مقاومة عراقية ضد الاحتلال الأمريكي ارتبطت بتنظيم القاعدة، لكنها انفصلت عنه لاحقاً وتبنّت مشروع الدولة الإسلامية في سوريا والعراق، ولم تخل تماماً عن رسالتها العراقية؛ لذلك فإنها لقيت تعاوناً من جانب ضباط جيش صدام حسين ومن العشائر ومن قواعد أهل السنة، التي ضاقت بالحكم الطائفي في بغداد. لذلك فإنني لا أبالغ إذا قلت إن التنظيم فيه من التعبير عن انتفاضة أهل السنة العراقيين وتجسيد غضبهم واحتجاجهم، بأكثر مما فيه من تطلعات التبشير بإحياء الخلافة.

يستوقفنا في هذا الصدد أن وزير الخارجية الأمريكي جون كيري بدا مدركاً لتلك الحقيقة، أكثر من أغلب «الخبراء» والمحللين العرب. على الأقل فذلك ما كشف عنه محضر اجتماعه الأخير مع رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي، الذي نشرت نصه جريدة «الحياة اللندنية» في 3/7 الحالي. إذ ذكر النص في أكثر من موضع أن الرجل انتقد السياسات الطائفية «غير الحصيفة»، التي اتبّعها المالكي، والتي أثارت استياءً وغضب أهل السنة والأكراد، وقال إن منظمة «داعش» إرهابية حقاً، ولكن ليس كل الذين وقفوا معها سواء كانوا مقاتلين أو مساندين، ليسوا إرهابيين أو تكفيريين، ولكنهم مواطنون عراقيون معتدلون حاربوا ضد تنظيم القاعدة في الماضي، ويطالبون الآن برفع المعاناة عنهم والكف عن التهميش والإقصاء. وما كان لهم أن يلجأوا إلى المقاومة المسلحة ومساندة «داعش»، إلا لأن خياراتهم ضاقت جراء السياسات الرعناء التي اتبّعتها حكومة المالكي.

(4)

بعض عناصر النخبة المصرية قرأت الحدث من منظور آخر، فهي لم تقرأ الأزمة السياسية الداخلية في العراق، ولم تتوقف عند غضب أهل السنة ومعاناتهم.

ولكنها حصرت اهتمامها في التعليق على مسألة إعلان الخلافة الإسلامية، وفي القسوة المفرطة التي اتبّعتها «داعش» مع مخالفيها، والقهر الذي مارسته بحق الذين خضعوا لولايتها.

ثم وظفوا ذلك كله لصالح حسابات السياسة الداخلية والصراع الحاصل الآن في مصر بين السلطة والإخوان، وكانت الرسالة التي حرصوا على توصيلها هي أن «داعش» هي النموذج الذي يسعى الإسلاميون إلى تطبيقه حيثما وجدوا. وأن الجميع لابد أن يحمدوا الله ويشكروا الرئيس عبدالفتاح السيسي لأنه أنقذ مصر من المصير البائس، الذي حملته «داعش» إلى المناطق التي خضعت لسلطانها.

للدقّة فإن ذلك لم يكن خطاب تلك الفئة من النخبة المصرية فحسب، ولكنّي وجدت صدى له في صحف الدول الخليجية، التي تقود الحملة ضد تجلّيات الربيع العربي.

حيث شاهدنا صور الإعدامات التي نفذها تنظيم «داعش»، وهي تتصدر الصفحات الأولى لبعض صحف تلك الدول، في رسالة ضمنية تقول للرأي العام هذا هو المصير الذي ينتظركم إذا ما وصل الإسلاميون إلى السلطة، وهي الرسالة التي حرص بعض السياسيين على التلميح إليها في عدة مناسبات أخيرة.

وقدقرأنا هذا الأسبوع تصريحاً لأحد القادة العرب علق فيه على تفاعلات الداخل وأزماته التي جلّها نظامه، قائلاً لبني وطنه: «إذا نظرتم حولكم فستدركون أنكم أفضل كثيراً من غيركم».

ليس عندي دفاع عن تجربة المسلمين في السلطة. ولكن ما يعنيني في اللحظة الراهنة هو الخطأ المعمد في قراءة الحدث،

وتوظيفه لصالح حسابات الصراع الداخلى. فى تجاهل وانتهاك لقيم المعرفة والأمانة العلمية، من شأنه أن يضل القارئ ويشوهد إدراكه.

أخطر ما فى ذلك الخطاب انه يضع الجميع فى سلة واحدة، ويعتبر ان فكرة الاعتدال الإسلامى خرافه روجتها بعض الجماعات وحيلة انطلت على كثرين.

والحقيقة من وجهة نظرهم أنه لا فرق بين طالبان وبوکو حرام وداعش وبين الإخوان وحزب الوسط وحركة النهضة التونسية وحزبي التنمية والعدالة فى المغرب وتركيا. فكلهم إرهابيون حملوا أسماء متباعدة وأخفوا قسماتهم تحت اقنعة مختلفة. وقد عبر عن ذلك أحدهم حين كتب قائلاً: كلهم داعشيون.

وهي ذات الفكرة التي بناها غلاة المحافظين في الولايات المتحدة ويروج لها بشدة «اللوبي» الصهيوني هناك. لقد أشرت قبل قليل إلى محضر لقاء وزير الخارجية الأمريكي مع رئيس الوزراء العراقي، الذي حرص فيه الأخير على تصوير معارضيه بأنهم جميعاً إرهابيون وداعشيون، مما كان من الوزير الأمريكي إلا أن أكد له أنه يتبع التمييز في المعارضين بين المتطرفين منهم والمعتدلين.

وهو المنطق الذي ينبغي أن يفكى به أى سياسي مسئول. ليس فقط تقريراً للواقع، وإنما أيضاً لكي يجد طرفاً يستطيع التفاهم معه. لأن إعلان الحرب على الجميع دون تمييز هو حماقة كبيرة تجعل الصراع بلا نهاية وتکبد الجميع خسائر فادحة. ومن المؤسف والمحزن أن نجد بعض مثقفينا في مصر يؤججون تلك الحرب المفتوحة حتى وصفهم أحد الكتاب العرب بأنهم أصبحوا بمثابة «كتيبة إبادة» (الحياة اللندنية 3/7).

إن مقاومة «شيطنة» الإسلاميين جميعاً أصبحت ضرورة ملحة، في وقت صار فيه الفرز فريضة غائبة وأحد سبل الخروج من المأزق السياسي الذي نعاني منه.

بوابة الشروق المصرية

المصادر: